حياة ديكارت

(١) الطفولة :

ولد رينيه ديكارت فى ٣١ مارس من عام ١٥٩٦ بمدينة لاهاى بإقليم التورين Touraine بفرنسا على بعد نحو ٣٠٠ كيلو متراً من الجنوب الغربى لباريس وعلى بعد ٥٠ كيلومترا من مدينة تور Tours عاصمة التورين .

وأبوه يواقيم ديكارت كان مستشاراً بمحكمة بريتانى Bretagne الإقليم الواقع فى الشمال الغربى من التورين . أما أمه فهى جان بورشار ، كانت بنت حاكم مقاطعة پواتييه فى جنوب تور . ينتمى ديكارت إذن إلى أسر فرنسا البورجوازية ، إلى أسر نبلاء الثوب .

وقد ولد ليواقيم ديكارت من هذا الزواج صبى وبنت كل منهما أكبر من الفيلسوف . ثم ولد له ابن بعد ميلاد الأخير بأكثر من سنة ولم يعش هذا الابن إلا أياماً بعد وفاة والدته .

فقد ديكارت والدته وهو لم يجاوز سنته الأولى بكثير كما فقد پسكال والدته وهو فى سن الثالثة . إلا أنه لم يكن لموت والدته نفس الآثار التى كانت لوفاة والدة پسكال ، لعدة أسباب نعرف منها واحداً على الأقل وهو أن والد ديكارت جعل له مرضعة عنيت به أفضل العناية . وبقى ديكارت مخلصاً لها طول حياته .

ويبدو أن ديكارت اهتم بالاحتفاظ بأخبار وفاة والدته ، بدليل أنه أشار إلى تلك الوفاة فى خطاب كتبه للأميرة اليصابات وهو فى سن الخمسين[1]. ولكن لأمر ما أخطأ فى ذكر تلك الأخبار وتفسيرها . فهو إذ يرشد صديقته الأميرة إلى علاج نفسى لمرض ألم بجسمها يذكر لها أنه اتبع نفس العلاج فى

---

(١) راجع خطاب ديكارت إلى الأميرة اليصابات فى مايو أو يونيه سنة ١٦٤٥ ل . ص ٩٤٨

سعال لازمه حتى سن العشرين وكان قد ورثه عن مرض رئوى ألم بوالدته أثناء حملها به وتوفيت عنه بعد ذلك الميلاد بأيام .

وغريب أن يقارن ديكارت مرض الأميرة بمرض والدته إلا أن تكون تلك المقارنة دليلاً على ما يكنه للأميرة من مودة عميقة . وأغرب من هذا أيضا أن يخطئ على النحو المذكور بصدد موت والدته الذى أعقب ميلاده ، بأكثر من سنة والذى تلى مباشرة ميلاد ابن جديد لم يعش طويلاً . وربما أُخفى أمر هذا الميلاد على فيلسوفنا كما أُخفيت عليه تفاصيل ذلك الموت . ولعل ديكارت فى اعتقاده هذا أراد أن يُحمل نفسه تبعة وفاة أمه ، ولعله أراد فى نفس الوقت أن يجمع بين وفائه لأمه التى لم يعرفها ، وبين صداقته لتلك الأميرة التى حلت فى نفسه محل الشقيقة والأم أيضا .

ومهما كان من أمر هذه القصة فهى مثال طريف على بعض الأخطاء التاريخية التى عملت بصدد حياته ومؤلفاته .

ويقص علينا ديكارت فى السنين الإخيرة من حياته شيئاً من ذكريات طفولته : يحدثنا أحياناً عن الريف الذى كان يعيش فيه ، وعن عادات المزارعين فى ذلك الريف ، وعن جمال القرى الفرنسية التى لا يعد لها فى نظره شىء مما زاره فى العالم ، بل لا تعد لها تلك العزلة الهولندية التى اختارها لنفسه فى العشرين سنة الأخيرة من حياته[1] .

ويقص ديكارت على صديقه شانو حادثاً من أحداث طفولته يؤيد به رأيه فى أن العاطفة وليدة أحداث الماضى البعيد وعاداته : أحب بنتاً من سنه كانت حولاء ، ثم أصبح بعد ذلك ميالاً إلى كل فتاة أو امرأة حولاء[2] .

وتلك القصة وتلك الذكريات التى رأى ديكارت تسجيلها فيما كتب لأصدقائه إنما هى دليل على أن الرجل لم ينبذ ماضيه ولم يكرهه . وإن أخطأ فى تفاصيله

---

(١) راجع خطابه إلى براسيه (Brasset) فى ١٦٤٩/٤/٢٣ ل . ١٠٧٧ .

(٢) راجع خطابه إلى شانو فى ١٦٤٧/٨/٦ ل . ١٠٣٧ .

أو تفسيره ، وإن كان خياله هو الذى سجل ذلك الماضى فلقد كان خيالا سارًّا محبوباً لنفسه .

(٢) سنى الدراسة :

وإذا انتقلنا من تلك القصص عن طفولة ديكارت إلى سنى مدرسته وجدنا هنا أيضاً صعوبة كبرى فى ذكر وقائع دقيقة خاصة بحياة الفيلسوف . وهناك اختلاف حتى بصدد ميعاد تاريخ دخوله المدرسة . فأن مؤرخه بابيه Baillet يذكر أنه دخل مدرسة لافيلش La Flèche للآباء اليسوعيين فى إبريل عام ١٦٠٤[١] أى بعد أشهر قلائل من افتتاح تلك المدرسة . ولكن الدقة التاريخية تجعل أحدث مؤرخى ديكارت يسجلون دخوله المدرسة فى عام ١٦٠٦[٢] . ومما يؤيد هذا الرأى الأخير أن خروجه من المدرسة كان فى عام ١٦١٤ على وجه التأكيد ، ولم يكن من المعقول أن يبقى بها أكثر من ثمانى سنوات ، نظراً للمرحلة الدراسية التى شرع عندها ، ولعدم احتمال رسوبه ، أو إعادته لسنة من السنوات لا سيما أن مؤرخيه لم يذكروا تعطل دراسته مدة سنة كاملة لسبب من الأسباب .

وعن الدراسة وبرنامجها ومراحلها ومدى إفادة ديكارت منها وفكرته عنها لدينا نص «المقال عن المنهج»[٣] يبدو فيه ديكارت صريحاً واضحاً كل الوضوح . غير أن هذا النص لم يكتب إلا فى عام ١٦٣٧ أى نحو ربع قرن تقريباً من تاريخ خروجه من المدرسة . ولم يكن ديكارت بطبعه مؤرخاً لأحداث العالم ولا لأحداثه الشخصية. ولم يكن « المقال عن المنهج » فى نظره سجلاً تاريخيًّا ؛ إنما كان قبل كل شىء تعبيراً عن حكمه على الثقافة العقلية بوجه عام ، وعلى الثقافة التى تلقاها هو بوجه خاص . ويبدو واضحاً من نص « المقال » وأسلوبه ،

---

(١) أدريان بابيه : *La Vie de Monsieur Descartes* (باريس ١٦٩١) المجلد الأول ١٦ – ١٩ .

(٢) راجع ألكييه : ديكارت (باريس ١٩٥٦) ص ١٦ .

(٣) ل . ٩٣ – ٩٧ .

أن مراحل تلك الثقافة كانت فى نظر ديكارت نماذج لها قيمتها الدائمة ، وإن لزم إحلال أخرى محل بعضها على الأقل .

ومما لا شك فيه أن ديكارت حكم على الثقافة التى تلقاها بالمدرسة ، وأن إشاراته إلى مراحلها ، وإن لم تكن دقيقة من الناحية التاريخية ، لم تكن خيالية ؛ ويمكن الاستعانة بها على تكوين فكرة عن الثقافة التى تلقاها ديكارت بمدرسة لا فليش لليسوعيين وعن مدى إفادته منها . ولم تتغير الثقافة فى مدارس اليسوعيين فى ناحيتها الأدبية حتى اليوم ؛ وعلى أسسها قام الأدب الفرنسى الكلاسى : وعنها صدر أسلوب اللغة والإنشاء والتأليف الفرنسى حتى اليوم . وتقوم تلك الثقافة فى مرحلتين : الأولى أدبية لغوية ، هى دراسة الكتاب اليونان والرومان القدماء فى لغتهم الأصلية . والثانية هى مرحلة الدراسة العقلية البحتة التى تقوم أغلبيتها فى مواد الفلسفة ، وأقليتها فى العلم الرياضى .

وتنقسم المرحلة الأولى ذاتها باعتبار سن الطالب ومقدار تحصيله ومرتبة نضوجه إلى فترتين . فهو يدرس أولاً لليونان والرومان قصصهم وتاريخهم ، ويستمر فى هذه الدراسة مدة سنوات ثلاث على الأكثر ؛ ثم ينتقل بعدها إلى فترة جديدة لا تزيد هى الأخرى على ثلاث سنوات ، يدرس أثناءها خطب القدماء وشعرهم .

وعندما يرقى إلى المرحلة الثانية التى تستمر سنتين يدرس فى الأولى المنطق مع الرياضيات وفى الثانية الأخلاق مع الطبيعة وما بعد الطبيعة .

ولا يختلف وصف ديكارت فى « المقال » عن البرنامج الذى ذكرناه : يبدأ بالقصص والتاريخ ثم ينتقل إلى الشعر والخطابة ، وينتهى بالرياضيات والفلسفة. أما حكمه على تلك الثقافة فلننظر له بعين الحذر : فقد كان من الممكن أن يكون مختلفاً لو جاء بعد نهاية تلك الدراسة فوراً . ولكنه مرتبط فى صورته الفعلية بما أراده ديكارت من الفلسفة والعلم والثقافة بوجه عام بعد السنوات الطويلة التى أعقبت خروجه من المدرسة .

والحق أن ديكارت لا يقصد نقداً شديداً ، بكلامه على الأقل عن مراحل الثقافة الأدبية. فعن القصص والتاريخ القديم يذكر أنه درس ذلك دراسة كافية[١]. أما عن الشعر والخطابة فهو لا ينكر جمالهما وروعتهما وأثرهما فى حياة النفس[٢]. وكان تدريس اليسوعيين لتلك المواد فى مدارسهم بفرنسا يفوق أى تدريس لها فى العالم الأوربى كله[٣] . فعلاوة على الدقة فى فهم النصوص القديمة لغة ونحواً وأدباً امتاز هذا التدريس بتوجيه الطلاب نحو الأساوب اللازم فى التعبير الشفوى وفى الكتابة من ناحية ، وبتوجيه عقولهم وخلقهم وطباعهم وساوكهم الخارجى من ناحية أخرى . ويبد و هذا التوجيه واضحاً فى أن الطالب لا يطالع النصوص القديمة برمتها أو فى ثوبها الكامل ، بل فى مختارات منها تعمل له خصيصاً وتناسب سنه ، والمجتمع الذى يعيش فيه ، والدين الذى ينتمى إليه .

وتدريس اللغات القديمة تدريس مُوَجَّه من الناحية الأدبية أولاً ، ثم من الناحية المعنوية الروحية ثانياً . وأثر دراسة الأدب اليونانى واضح فى تنمية الخيال الأدبى . أما أثر الأدب اللاتينى فهو واضح فى ضبط أسلوب التعبير وإخضاعه للدقة اللاتينية التى تكاد تحاكى فى ميدان الأدب واللغة دقة الجبر والهندسة أو دقة القانون الرومانى ذاته .

ولا يزيد اليسوعيون فى الناحية الأدبية على ما فى الأصول ذاتها وما يُستَمد منها إلا أن يوجهوا الخيال إلى مثال العظمة والقوة فى القصص والأدب ، وإلى ما كان مضبوطاً منتظماً فى الأساوب . وعلى ذلك يكون مبدأ الأدب الكلاسى ومثاله الأعلى ، كما يفهمه اليسوعيون ، اتحاداً العظمة بالنظام ، والقوة بقواعد العقل . أما من الناحية المعنوية فكان قصدهم تربية النفس على الشجاعة من ناحية — وأبطال اليونان والرومان نماذج واضحة لها — وعلى الطاعة من ناحية أخرى ، وأسلوب

---

(١) المقال عن المنهج ل . ٩٥ .
(٢) المقال عن المنهج ل . ٩٤ .
(٣) المقال عن المنهج ل . ٩٤ .

الرومان فى الحكم والحرب وفى التأليف أيضاً أنموذج حى على تلك الطاعة .

إلا أن الشجاعة من ناحية ، والطاعة من ناحية أخرى ، يقصدان لأن فيهما تربية الإرادة ، وهى هدف اليسوعيين بوجه عام . لذلك لا يمكننا أن نفصل بين تثقيفهم للذوق الأدبى وبين توجيههم للسلوك . وكان اليسوعيون فى الناحية الأخيرة متشددين لكن فى اعتدال . فكان تلميذهم مهذباً ، لا يرفع صوته كثيراً ، ولا يفرط فى الكلام ، ولا يخرج على نظام المدرسة ، يُعَوَّد الطاعة ، لكن فى جو من الحرية الكاملة .

وإن فهمنا الغاية النهائية من تربية فضيلتى الشجاعة والطاعة فى الفرد فهمنا أن يكون التوجيه معنويًّا خلقيًّا قبل كل شىء ، بل أن يكون دينيًّا أيضاً ، وسياسيًّا إلى حد ما ؛ أن يكون محاولة فى التوفيق بين أدب وأخلاق اليونان والرومان ، وبين ما تفرضه علينا الحكومة والدين من واجبات وقواعد . وعندئذ تظهر الثقافةُ الأدبية فى كتب اليونان والرومان توجيهاً نحو طاعة الملك والخضوع لله وكنيسته . ونرى أولى قواعد الأخلاق فى « المقال » تنص على « أن يخضع الفيلسوف لتشريع بلده وتقاليده وأن يبقى على الدين الذى أنعم الله عليه به [1] » .

وطبيعى بعد كل ما ذكرنا أن يكون ديكارت ، على رأس رجال الأدب الفرنسى فى القرن السابع عشر ، محافظاً ، متبعاً لما يرى من قواعد ، لكن فى حرية . فلم يطالبه معلموه بأكثر من ذلك ، بل لم يعلموه شيئاً غير ذلك .

هذا بوجه عام ، موقفه من ثقافتهم الأدبية ومبلغ تأثيرها فيه — أما نقده للثقافة العقلية فى ناحيتيها الرياضية والفلسفية ، فقد كان كما هو معروف لاذعاً شديداً ، إلا أنه ينبغى لتقدير قيمته أن نعرف ما تعلمه من معلميه فى هاتين الناحيتين بوجه تقريبى على الأقل .

أما الرياضة فقد درسها على أفضل معلميها وطالع معهم كتاب كلافيوس

---

(١) المقال ل . ١٠٦ — ١٠٧

Clavius اليسوعى وهو عمدة الجبر فى ذلك الوقت . درس الجبر إذن علاوة على فروع الرياضة التقليدية من هندسة وحساب وفلك وموسيقى . وتدل إشارات ديكارت إلى تلك الدراسة على أن إلمامه أثناءها بالعلم الرياضى كان كافياً ، واكتمل فوق ذلك بتطبيقات عملية سواء فى ميدان مساحة الأرض أو فى الصناعات الميكانيكية المعروفة .

اعترف بالقيمة النظرية للعلم الرياضى الذى تلقاه عن اليسوعيين ، ولكنه عاب عليه ضيق تطبيقاته[١] . وسنرى مباشرة معنى هذا النقد .

لننظر إلى نقده للدروس الفلسفية التى تلقاها بلافليش .

ولعل تلك الدروس لم تعدُ أن تكون ملخصات للمذهب الذى اتبعه القديس توما الأكوينى والذى أوّل فيه فلسفة أرسطو تأويلاً مسيحياً. ومعروف أن الكنيسة الكاثوليكية فى مجمع ترنت Trente قد أوصت المدارس والجامعات باتباع ذلك المذهب فى تدريس الفلسفة واللاهوت . إلا أنه يجب علينا أن نأخذ هنا باعتبارين .

أولهما — أن اليسوعيين لم يفرضُوا على طلاب مدارسهم مطالعة مؤلفات أرسطو أو القديس توما فى نصها بدليل أن من يقرأ فلسفة ديكارت فى النواحى التى يبدو فيها قريباً إلى المدرسيين لا يلقى فيها أثراً للفلسفة الأرسطية ، كما أولها القديس توما . والأغلب أن اليسوعيين لم يهتموا بمباحث أرسطو والأكوينى فى التجربة وعلاقتها بالوجود ، أو فى العقل الإنسانى وعلاقته بالحس ، أو أخيراً فى الوجود ذاته وعلاقته بمبدئه الأول . والأغلب أنهم اكتفوا بإرجاع المذهب الأرسطى الأكوينى إلى بعض معانٍ فلسفية رئيسية ، كمعانى الجوهر والصورة ، والمادة والطبيعة ، وأنواع العلل المختلفة ، وأنواع الحركات ، كما نص على ذلك أرسطو فى الطبيعة وفيما بعد الطبيعة[٢] .

---

(١) المقال ل . ٩٥ — ٩٦ .

(٢) راجع فى هذا كتاب ألكييه : الاكتشاف الميتافيزيقى للإنسان عند ديكارت ٢٦ — ٣٦ .

ورأينا أن المذهب التوماوى الأصيل قد فقد عندهم روحه وحياته . ولا أدل على ذلك من أن ديكارت أراد فى بداية الأمر أن ينشر كتاب «مبادئ الفلسفة »[١] وأن يقرن فيه كل فقره بفقرة مختارة من مؤلف فلسفى مدرسى معروف ، وذلك ليبين امتياز فلسفته على الفلسفة المدرسية [٢] . وكأن الفلسفة المدرسية قد رجعت فى نظره إلى عدة بنود أو مواد تعلّم وتحفظ ، لا إلى حياة العقل ذاته ، كما كانت عند القديس توما الأكوينى .

والاعتبار الثانى — هو أن ديكارت فى « المقال عن المنهج » ، وفى نقده السريع للفلسفة التى تعلمها ، لم يشر لا إلى أرسطو ولا إلى توما ولا إلى أى نظرية واضحة متكاملة استخلصها من دروس الفلسفة . وتفسير ذلك واضح وهو أن اليسوعيين كانوا قبل كل شىء ملفقين فى الفلسفة يجمعون فيها بين أشياء بعضها صادر عن توما والأخرى عن دانز سكوت Duns Scot[٣] أو غيرهما من المدرسيين ، كما يتبين من مطالعة كتب معلمهم الأول سواريز Suarez [٤]

وانتقد ديكارت فلسفة معلميه بجرة قلم سريعة ، فعاب عليها قبل كل شىء ، أنها جدل ونقاش مستمران بين نظريات مختلفة ، لا يمكن أن تكون كلها صحيحة ، فى وقت واحد ، فى موضوع واحد ، وأنها على أفضل تقدير محاولة ترجيح نظرية على أخرى ، من شأنها ترك العقل حراً ، يختار فى الميدان النظرى ما يروقه دون أن يكون على يقين فى شىء . وتصبح الفلسفة عندئذ مدرسة شك ، قبل أن تكون مدرسة يقين وعلم[٥] .

أما فى ميدان الفلسفة العملية أو الأخلاق فيبدو أن الدروس اقتصرت على

---

(١) الذى نشر فى عام ١٦٤٤ .

(٢) راجع خطابه إلى مرسين (Mersenne) فى ١١/١١/ ١٦٤٠ (أ — م المجلد الرابع ٢٠١ — ٢٠٢) .

(٣) عالم لاهوتى إنجليزى وراهب فرانسيسكانى عاش من سنة ١٢٧٠ إلى سنة ١٣٠٨ .

(٤) عالم لاهوتى إسبانى ويسوعى ، عاش من سنة ١٥٤٨ إلى سنة ١٦١٧ .

(٥) المقال ل ٩٦

مطالعات بليغة مختارة من كتب الرواقيين[١] دون أن تكون لتلك المطالعات ولتعليق المعلمين عليها أى علاقة بالحياة العملية التى يريد ديكارت أن يختط طريقه فيها بثبات وحزم كاملين .

ولربما وجب لغاية فهم النقد الديكارتى للفلسفة التى تعلمها أن نَضُم إلى ذلك النقد نقده للرياضيات ، وأن ننظر بوجه عام فى نقده للثقافة العقلية التى تلقاها . فعيب العلم الرياضى الذى درسه ، هو أنه لا يمكّن دارسه من تطبيق عام شامل فى جميع أوجه الحياة والعمل ، مما يدل على أن هذا العلم كان محدوداً ضيقاً . وعيب الفلسفة أن لا وسيلة فيها تجنب الإنسان الخطأ ولا قاعدة يُثبت أقدامه فى الحياة عليها . وديكارت تواق كما يقول إلى « أنْ يميز الصحة من الخطأ ليرى بوضوح ، ويسير فى ثبات[٢] » .

وعلى ذلك كان العيب الجوهرى لتلك الثقافة العقلية فى مراحلها العليا أنها لم تكن حكمة بالمعنى الصحيح . فاليقين معدوم فى الناحية النظرية ، والتطبيق محدود ضيق كل الضيق . أما الفلسفة الحقة فهى بحث عن الحكمة ، ومن شأن الحكمة أن تكون نوراً للإنسان يقوده فى الحياة .

نعم إن ديكارت فى وقت خروجه من مدرسة لافليش ، لم يصرح بالنقد الأساسى الذى أشار إليه فى « المقال » بعد ذلك الوقت بربع قرن . ولكن الإشارة تحمل شيئاً من ذكرى خيبة الأمل التى شعر بها عند خروجه من المدرسة .

إلا أنه لم يمتنع حتى فى أوقات كان يندد فيها بالعلم والفلسفة المدرسية من الاعتراف بأنه تلقى عن اليسوعيين أفضل ثقافة يمكن لشاب أن يتلقاها[٣] ،

---

(١) المقال ل . ٩٦ .
(٢) المقال ل . ٩٦ .
(٣) ل . ٩٤ .

وبأنه مدين لأساتذته ببذور تفكيره[١] ، بل من أن ينصح صديقاً له بإرسال ابنه إلى مدارس اليسوعيين[٢] .

ولكن كيف له أن يفعل ذلك إن لم يكن قد اقتنع هو شخصيا بقيمة تلك الثقافة ؟

ولو تساءلنا عما يمكن استخلاصه من كلام ديكارت عن دراسته ودينه لمعلميه وجب القول أنه تعلم منهم أمرين : أولهما أن التفكير خاضع لقواعد ونظام ؛ والثانى أن العمل جوهرى فى الحياة الإنسانية ، وأنه لاشك أهم من التفكير النظرى البحت ومن التفلسف . وهذان الأمران : النظام من ناحية ، والروح العملية من ناحية أخرى ، وفيهما كما سنرى جوهر منهج ديكارت وأخلاقه المؤقتة ، هما فى نهاية الأمر عمادا التعليم اليسوعى .

ولذلك فإننا نعبر عن دَين ديكارت لمعلميه تعبيراً كاملاً ، لو أننا أضفنا ، إلى دراساته الأدبية والفلسفية ، التربية الدينية التى تلقاها عنهم . وإشارات ديكارت فى « المقال » إلى تلك التربية موجزة كل الإيجاز ولكنها واضحة . فهو قد تعلم « أن الطريق إلى النعيم مفتوح للجهلاء والعلماء معاً ، وأن حقائق الوحى إذ جاوزت أفهامنا استحال إخضاعها لتفكيرنا واستدلالنا[٣] . »

وهذه الإشارة ذاتها ترجع بنا إلى التربية اليسوعية وأساسها الدينى عند منشئ الجماعة اليسوعية ، عند القديس أغناطيوس اللايولى : ذلك الأساس هو أن « الإنسان مخلوق » ؛ وعاجز إذن عن فهم أسرار الله وقدرته ، وأنه مع ذلك كائن حر يستطيع ، بعمله تمجيد الله وخدمته .

والمغزى التربوى لهذا الموقف المزدوج هو أنه لابد من ترويض الطالب على

---

(١) فى خطاب للأب فورنيه (Fournet) أحد معلميه القدماء بلافليش بتاريخ ١٦٣٧/٦/١٤ وذلك بمناسبة إهداء ديكارت « المقال » له (راجع أ — م المجلد الأول ٣٧٤ — ٣٧٥) .

(٢) راجع خطاباً له فى ١٦٣٨/٩/١٢ (أ — ت . المجلد الثانى ٣٧٨) .

(٣) المقال : ل ٩٦ .

الطاعة والنظام ، كما أنه لابد من ترويضه على العمل وتحمل التبعات . وإن كان الأمر كذلك كانت التربية الأدبية والتربية الفلسفية كما ذكرناهما تابعتَيْن للتربية الروحية ، خاضعتيْن لمبدئها . ولذلك وجب ألا نهمل الإشارة هنا إلى منزلة « التمارين الروحية »[1] من حياة تلميذ اليسوعيين : فالمعروف أن هناك أوقاتاً ، فى كل سنة مدرسية ، تخصص للتمارين الروحية ، لا يتبع التلاميذ أثناءها دروسهم المعتادة ، إنما ينصرفون فيها إلى متابعة الشعائر الدينية والوعظ والإرشاد . ويرجع التلاميذ من حين لآخر إلى مرشد من الآباء ، ويختلون أيضاً من حين لآخر ، يراجعون أنفسهم فى مدى انحرافهم عن الدين وطاعة الرؤساء ، وفى مدى ما أحرزوه من تقدم لإرادتهم وتفكيرهم حسب القواعد التى خبروا تأثيرها .

وسيكون لتلك التمارين الروحية صداها العظيم فى نشأة المنهج الديكارتى . نقول إذن فى النهاية أنه بالرغم مما وجهه ديكارت من لوم ونقد لأساتذته ، فهو مع ذلك أهل لأن يتعرف فيهم معلميه الحقيقيين .

(ح) أحلام ديكارت :

تخرج رينيه ديكارت فى مدرسة لا فليش فى صيف عام ١٦١٤ أى بعد أن جاوز الثامنة عشر بقليل ثم حصل من جامعة پواتييه فى عام ١٦١٦ على درجتى البكالوريوس والليسانس فى الحقوق ، وليس هناك تفاوت كبير بينهما ، سوى فى أن الثانية تسمح لصاحبها بممارسة مهنة المحاماة بعد مدة معينة من التمرين .

وليس لدينا علم أكيد بأن ديكارت استمع بانتظام لمحاضرات الجامعة فى القانون ؛ والأغلب أنه حصل على معلوماته فى الموضوع أثناء السنتين الأخيرتين لدراسته بلافليش حيث كان القانون والطب من الموضوعات التى يمكن اختيارها علاوةً على الفلسفة والعلوم الرياضية .

---

(١) Exercices Spirituels للقديس أغناطيوس مؤسس الجمعية اليسوعية . وهى التمارين التى رأى أن يقوم بها كل من أراد التقدم فى الحياة الروحية . راجع ما ذكرناه سابقاً ٤ — ٥ . ثم ٦١ — ٦٥ ، ٧٤ ، ٧٨ .

سجل ديكارت اسمه فى سجل المحامين منذ سنة تخرجه ولم يترافع أبداً . وفكر فى عام ١٦٢٢ فى شراء وظيفة قضائية وذلك عندما حصل على استقلاله المالى ، ثم نبذ تلك الفكرة بعد حين .

كان ديكارت شاباً اجتماعياً ، على الأقل مدة ما بعد تخرجه . وكان يجيد الرقص واللعب بالسيف . ثم اشترى له أبوه وظيفة ضابط ، على عادة نبلاء ذلك الوقت ؛ وأصبح ديكارت فى عام ١٦١٨ ضابطاً بجيش موريس دى ناسو Maurice de Nassau الهولندى وحليف فرنسا . وعاش ديكارت بمدينة بريدا Breda بهولندا مدة ما ، وتعرف أثناءها بإسحق بيكمان Isaac Beeckman ، الذى كان له أعظم الأثر فى توجيهه توجيهاً علمياً . وبيكمان أكبر من ديكارت بثمان سنوات ، وكان فى ذلك الوقت وكيل مدرسة ثانوية ، يعنى خارج وظيفته هذه ، بالرياضيات والعلوم وبعلم الطبيعة بنوع خاص ، متجهاً فى بحوثه إلى تأويل الظواهر الطبيعية تأويلاً رياضياً ميكانيكياً عاماً ، قريباً إلى ذلك الذى اتخذه جاليليو فى نفس الوقت تقريباً . ولا شك فى أن ديكارت تعلم منه الكثير أثناء إقامته بمدينة بريدا بدليل تلك الكلمات التى كتبها له فى ذلك الوقت : « إنك فى الحقيقة الإنسان الوحيد الذى أيقظنى من خمولى ، وأعاد إلى نفسى علماً كاد ينمحى من ذاكرتى ، وأرجع عقلى إلى جليل الأعمال بعد أن كان قد نبذها[١] ». وبدليل أن ديكارت أهدى إليه أول كتاب ألفه وعنوانه « ملخص الموسيقى » راجياً منه فى الإهداء أن يحتفظ بالكتاب لنفسه ما دام هو بالفعل صاحبه وملهمه[٢]. ويمكننا أن نتخيل ديكارت عند وصوله إلى بريدا عائشاً فى عزلة كاملة ثم هائماً بين عزلته هذه وبحوث علمية لا طائلة تحثها إلى أن التقى ببيكمان الذى وجهه إلى الدراسة النافعة .

---

(١) راجع فى هذا مؤلفات ديكارت الكاملة (أ. — ت) المجلد العاشر ص ٤٦ .

(٢) راجع كتاب ك . سرورييه (Cornelia Serrurier) : ديكارت (امستردام ١٩٥١) . ص ٨ .

ثم اضطر بيكمان إلى السفر مدة ما إلى المانيا . فضاق ديكارت بحياته ببريدا وسافرا هو أيضاً إلى ألمانيا ، وانضم فى أبريل عام ١٨١٩ إلى جيش آخر ، حليف لفرنسا فى ذلك الوقت، وهو جيش أمبراطور ألمانيا .

ولكنه اتخذ فى سفره هذا طريقاً طويلاً . فأبحر إلى الدانمارك ، ووصل بعد مدة ما إلى أواسط ألمانيا الغربية ، واشترك فى حفلات تنصيب الأمبراطور التى قامت بين يوليه وسبتمبر سنة ١٦١٩ . ثم جال بعض الوقت فى تلك الأنحاء حتى اختار لنفسه ، فى أواخر اكتوبر ، مسكناً بمكان ما بالقرب من مدينة أولم Ulm . ولم يكن هذا المسكن إلا حجرة واحدة مدفأة أشد التدفئة ، عاش فيها فيلسوفنا مدة لا نستطيع تقديرها . إنما لا تقل عن شهرين . واتخذ أثناء ذلك الوقت منوالاً فى الحياة خاصاً به : كان لاينام إلا عند ما يتقدم به الليل . ويبقى فى سريره طول الصباح . ولا يترك حجرته إلا بعد الظهر يخرج لجولة طويلة فى الغابات المجاورة . إما على حصانه أو على قدميه .

وقد سجل بابيه Baillet مؤرخ ديكارت . نقلاً عن الفيلسوف ، شيئاً من أحداث ليلة ١١ نوفمبر سنة ١٦١٩ . نقصد أحلامه بهذه الحجرة، ومشروعاته العلمية .

ولنورد هذه الأحلام وهى ثلاثة ، ولنتكلم بايجاز عن علاقتها بتلك المشروعات .

كان ديكارت فى الحلم الأول يسير فى الطريق . فأحس فجأة أثناء سيره بفزع وارتعاب شديدين أفقداه توازنه . فحاول مُسْرِعاً استرجاع هذا التوازن. وعندئذ فاجاءته ريح عنيفة قلبت جسمه رأساً على عقب ، فجرى فى شىء من التعثر إلى مدرسته ليصلى فى كنيستها . ولكنه تذكر عند دخوله إليها ، أنه لمح أثناء جريه فى الطريق رجلاً كان يعرفه ، فخرج فوراً من الكنيسة

---

(١) راجع بابيه : حياة ديكارت : الجزء الأول ٨١ - ٨٦ ثم كتاب ك . سروريه Cornelia Serrurier : ديكارت ١٤ - ٢٢ .

ليلحق به ويحييه . ولكن ريحاً أقوى من السابقة دفعت بجسمه إلى جدار الكنيسة. وعند ئذ جاءه رجل آخر وطلب منه فى أدب ولطف أن يقابل صديقاً يريد إهداءه شيئاً ثميناً ؛ فظن ديكارت أن الهدية لم تكن إلا شهامة مستوردة من الخارج . — وكان ديكارت ، طول الحلم ، متعجباً من احتفاظ جميع الناس بتوازنهم ، إلا هو . وتيقظ فى النهاية متيقناً من أنه ألعوبة روح خبيث .

وعندئذ دار فى سريره ورقد على جانبه الأيمن ورفع إلى الله صلاة قصيرة . ثم نام ففوجئ مباشرة بحلم ثان أعنف من الأول وإن كان أقصر منه . سمع قصف الرعد ، وخيل إليه أن عينيه مفتوحتان وأنه يرى غرفته تلمع كلها بأشعة نور قوى ، ويتيقظ بعد ذلك وفكر فى هذه الرؤيا واطمأن إليها شيئاً ما .

ثم نام من جديد فحلم لثالث مرة حلماً ارتاح له ارتياحاً كاملاً : رأى على منضدته كتابين أحدهما قاموس اغتبط له أشد الاغتباط والآخر مجموعة من مختارات الأشعار تصفحها مباشرة فأعجب ببيت فيها إعجاباً قرر بعده أن يتخذ البيت شعاراً لحياته فى المستقبل وهو بيت لشاعر لاتينى اسمه اوزونيوس Ausone يتساءل فيه : «أى طريق فى الحياة أتبع ؟ » Quod vitae sectabor iter

وفى أثناء تصفحه هذا الكتاب جاءه شخص مجهول ، وقدم له قصيدة لنفس الشاعر تبدأ بالكلمات « نعم أم لا ؟ » . وحدثه المجهول عن جمال القصيدة ، فرد عليه ديكارت بأنه يعرفها ، وبأنها فى كتاب المختارات الشعرية . وعندما حاول العثور على تلك القصيدة فى الكتاب لمح اختفاء القاموس . ولكنه رأى القاموس بعد ذلك ، وقد تغير شكله ومحتواه . وعمل ديكارت على تصفح المختارات فلاحظ فى إعجاب صوراً جميلة تملأ الكتاب . ثم اختفى الشخص المجهول واختفت الكتب — وبقى ديكارت فى نومه محاولاً أثناءه تفهم معنى هذه الرؤى . فاعتقد أن القاموس رمز إلى جميع العلوم فى اتحادها ، وأن المختارات الشعرية رمز إلى اتحاد الفلسفة بالحكمة . ولم يتردد أثناء نومه فى الاعتقاد بأن إلهام الشعراء منبع لحكمة تفوق تفكير الفلاسفة .

ثم أفاق ديكارت من نومه مطمئنًّا إلى الحلم الثالث واثقاً بأن روح الله قد أرادت أن تكشف له كنوز العلم والحكمة بينما اعتبر الحلمين الأولين بمثابة إنذار نهائى له ضد ماضيه حتى اليوم .

ولا يسمح لنا المحال بتأويل عام لتلك الأحلام، وقد ذهب فى ذلك المؤرخون مذاهب شتى[١] ، حتى التجأ بعضهم إلى فرويد نفسه الذى لم ير إمكان تفسير معين بالذات ما دامت الأحلام لشخص ليس على قيد الحياة .

ويكفينا أن نرى فى الحلمين الأولين تعبيراً عن قلق الفيلسوف وحيرته بين اتجاهات مختلفة ، قد تتخذها حياته . بين ماض أراد التحرر منه ، ومستقبل لم يعرف عنه شيئاً . ثم جاءت أشعة الضوء فى نهاية الحلم الثانى إشارة إلى نقطة تحول فى حياته ، ورمزاً إلى إرادة حاسمة عنده للتحرر من الماضى ، والتقدم إلى مستقبل نضوج وخصب . ثم جاء الحلم الثالث ممثلاً لوحدة فلسفية عليا فكر فيها ديكارت منذ التقى ببيكمان ، بل لعله فكر فيها تفكيراً غامضاً منذ السنين الأخيرة لدراسته بلافليش .

وقد سجل بايّيه مؤرخ ديكارت أن الفيلسوف اكتشف فى تلك الليلة « أسس العلم العجيب[٢] » . إلا أن البحوث التاريخية لا تبين أن ديكارت قام فى ذلك الوقت ، أو بعده بقليل ، باكتشاف علمى معين ، أو أنه شرع فى تأسيس فلسفة كاملة . وثابت أن ديكارت لم يكتشف فى تلك الليلة الشهيرة مبادئ الهندسة التحليلية ، وأنه لم يبدأ بعدها مباشرة فى تحرير كتاب « القواعد لتوجيه العقل » .

وثمة أمران يمكن تأكيدهما من الناحية التاريخية : الأول أن مخطوطات ديكارت فى ذلك الوقت تدل على أنه كان بين موقفين عقليين : موقف هندسى

---

(١) راجع بنوع خاص : جاك ماريتان : حلم ديكارت Le Songe de Descartes باريس عام ١٩٣٢ ؛ ومكسيم لروا : ديكارت أو الفيلسوف ذو القناع . باريس عام ١٩٢٩ .

(٢) راجع بايّيه : حياة ديكارت الجزء الأول ص ٨١ .

ميكانيكى اتخذه بعد بيكمان وأدى به بعد سنين إلى تعميم المبدأ الآلى وإلى اتخاذ تفسير رياضى كامل فى الطبيعة ؛ ثم موقف آخر غير واضح تماماً أشار فيه إلى وحدة الطبيعة وإلى الحب والإنسجام اللذين يقربان أجزاء الطبيعة فيما بينها . وقد نبذ ديكارت هذا الموقف الأخير حتى إننا لا نجد له أثراً فى مخطوطاته بعد ذلك أو فى مؤلفاته[١] .

أما الأمر الثانى الذى يمكن تأكيده فهو عزم ديكارت الصادق على تخصيص حياته للتفكير ، بدليل اعتزاله وظيفته العسكرية . ثم رفضه بعد ذلك منصب القضاء الذى عرض عليه عندما استقل عن أسرته استقلالاً ماليًّا كاملاً ، فى عام ١٦٣٢ . وتعهده أخيراً بالحج على أقدامه حتى دير العذراء بلوريت Notre Dame de Lorette بإيطاليا ، ذلك الحج الذى سمع عنه منذ سنى تلمذته بلافليش ونذره للعذراء بعد ليلة ١٠ نوفمبر ١٦١٩

(د) سنوات العلم والتحصيل[٢]

وإنا لا نعرف على وجه التدقيق كيف قضى ديكارت أوقاته بين عام ١٦١٩ وعام ١٦٢٢ عندما نلقاه فى هذا العام الأخير فى فرنسا مع أفراد أسرته ليحصل على نصيبه من ميراث والدته . وغاية ما يمكن أن نرويه هو أنه قام برحلة طويلة من جنوب غربى ألمانيا حيث كان فى نهاية عام ١٦١٩ إلى شمالها وأبحر منها إلى هولندا حيث بقى مدة قصيرة . ثم أبحر من هولندا إلى فرنسا فى رحلة لا يمكن تحديد ميعادها بالضبط . إنما يحكى أن بحارة مركبه فى هذه الرحلة اعتزموا قتله هو وخادمه وسلب ما معهما من أموال ومتاع . ولكنه علم بمكيدتهم فقام للتو شاهراً سيفه عليهم . وعددهم لا يقل عن العشرين ، مهدداً أى واحد

(١) راجع فى ذلك ف . ألكييه : الاكتشاف الميتافيزيقى للإنسان عند ديكارت (باريس . ١٩٥٠) ٤٥ – ٤٦ وكتابه : ديكارت (باريس ١٩٥٦) ٢٠ – ٢١

(٢) وقد رأينا إختصار هذا الجزء من الحياة لعودتنا إليه فى كلامنا عن مراحل تأليف الفيلسوف

منهم يجرؤ على مهاجمته . فذعروا وتركوه لشأنه يتم رحلته . وينزل من المركب فى دنكرك .

ولا يمكن أيضاً أن نؤكد الكثير عن رحلته إلى إيطاليا ، وعما إذا كان قد حج إلى « لوريت » أم لا . وكل ما يعرف عن حياته بين نهاية عام ١٦٢٢ وعام ١٦٢٥ أنه سافر إلى إيطاليا بالفعل ، ثم رجع منها غير راض عن رحلته إلى تلك البلاد . ثم عاش من سنة ١٦٢٥ فى فرنسا بين باريس والريف مدة ثلاث سنوات تقريباً تعرف أثناءها بجمهور من العلماء ورجال الدين أخصهم مراسله وصديقه فيما بعد الأب مرسين Mersenne ، والذى كان مدة عشرين سنة واسطة التعارف والتراسل بينه وبين علماء وفلاسفة ولاهوتيي أوروبا. واتصل أيضاً أثناء إقامته هذه بعلماء طبيعيين ومهندسين ورجال كانوا يعنون بتطبيق العلم والرياضة فى الصناعة ، وكان من بينهم صديقه فرييه Ferrier الذى عهد إليه ديكارت بصنع ما احتاج إليه من آلات لبحوثه العلمية والضوئية بنوع خاص .

وأهم أحداث حياته فى ذلك الوقت الاجتماع الذى تم فى خريف عام ١٦٢٧ عند القاصد الرسولى ببارياس . وحضره ديكارت والكردينال دى بيرول Cardinal de Bérulle مؤسس جماعة الأوراتوار Oratoire الدينية ، وغيرهما من كبار العلماء والمفكرين ؛ واستعموا إلى حديث رجل اسمه دى شاندو de Chandoux تكلم الرجل عن أسس العلم الذى يجب فى نظره أن يحل محل العلم المدرسى . ولم يقنع الحاضرين بكلامه الذى جمع إلى الغموض إدعاءات غريبة بعيدة عن العلم كل البعد — . وهنا طلب الكردينال دى بيرول من ديكارت رأيه فى الموضوع ، فأجاب هذا فى حذر عظيم بادئاً بتفنيد إدعاءات الرجل . ثم أشار فى اقتضاب إلى مبادئ أخرى تكفل للعلم استقلاله وتقدمه وخصبه ، وللدين جلاله وعظمته .

وإن لم تسجل لنا اعترافات ديكارت فى الموضوع فالأغلب أنه لم يصرح

أثناء حديثه بأى نظرية ميتافيزيقية جديدة . إنما اكتفى بالكلام عن أمله فى قيام علم طبيعى ميكانيكى عام ، يستخدم الاستدلال الرياضى فى جميع نواحيه . والمعروف أنه زار الكردينال بعد هذا الاجتماع أكثر من مرة ، وحدثه عن آرائه ومشروعاته العلمية . ومن المحتمل أنه تعهد للكردينال بأن يمضى فى تلك المشروعات حتى نهايتها ، وأن ينتقل بعد ذلك إلى البحث عن فلسفة تكفل للعلم استقلاله وتعترف لله بمنزلته وقدرته[1] .

وإنا نعرف أن ديكارت اعتزم نهائياً تجنب الحياة الاجتماعية والاعتكاف الكامل وذلك منذ بداية عام ١٦٢٨ . قرر ترك فرنسا وأوصى أصدقاءه بالبحث عن منزل له بالريف الهولندى . وعندما تم له ذلك سافر إلى هولندا وعاش فى تلك البلاد فى عزلة تكاد تكون تامة حتى نهاية حياته تقريباً . ولم يكن يقيم ببلدة واحدة فى هولندا أو منزل مدة ما إلا وانتقل إلى مدينة جديدة أو منزل جديد بعيد عن المنزل السابق حتى لا يألف إلى الناس ولا يألفوا إليه . وكان لا يعطى عنوانه إلا لصديقه مرسين موصياً إياه بأن يرسل إليه خطاباته لا فى منزله ، إنما فى منزل شخص آخر يتسلم ديكارت منه الخطابات تباعاً . وكان ديكارت يفضل الريف على المدن . إنما كان مع ذلك يتخذ مسكنه فى الريف غير بعيد عن مدينة من المدن حتى يستطيع شراء لوازم منزله أو معامله العلمية .

وابتدأ ديكارت حياته فى هولندا فى عام ١٦٢٩ فى مدينة فرينكر Frenecker وذلك بعد عدة تنقلات ورحلات بين هولندا وفرنسا . وسكن قصراً صغيراً بالقرب من أبواب المدينة حتى لا يكون بعيداً عن الريف . ثم انتسب إلى جامعتها حيث تابع فيها دروس علم الطبيعة وخاصة دروس علامة متخصص فى المجاهر . ثم ترك فرنكر فى نهاية هذا العام ، واتجه إلى امستردام حيث أقام بها إقامة شبه مستديمة إلى عام ١٦٣٥ ، مع تنقلات من منزل إلى آخر فى المدينة ، ورحلات تطول

---

(١) راجع بصدد هذا الاجتماع بالييه : حياة ديكارت المجلد الأول ١٦٠ — ١٦٦ . راجع أيضاً ألكييه : ديكارت ٢٢ — ٢٣ .

أو تقصر فى بعض المدن الهولندية الأخرى .. فنعرف مثلا أنه انتسب فى عام١٦٣١ إلىجامعة ليدن ، واتصل فيها بالرياضىّ والمستشرق جوليوس Golius الذى عرض عليه بعض مسائل هندسية ، لم يحلها الهندسيون القدماء . فاهتدى ديكارت أثناء حلها إلى اكتشاف مبادئ الهندسة التحليلية . وتعرف ديكارت عن طريق جوليوس بقسطنطين هويجنز Constantin Huygens والد عالم الضوء الشهير كريستيان هويجنز . وكان الأب يشغل فى ذلك الوقت منصباً هامًّا فى البلاط الهولندى كما كان علاوة على ذلكعلامة فى الطبيعة والرياضة مغرماً بالفن والأدب والموسيقى .

وأنا نعرف أيضاً أنه استقر فى عام ١٦٣٣ مدة ما بمدينة ديفنتر Deventer واتصل بهيلين هانس Hélène Hans التى ربما كانت فى خدمته فى ذلك الوقت ، وأنجب منها بنتاً سماها فرانسين Francine ، وفاءً لذكرى بلاده ووطنه . ولم يشر إلى تلك العلاقة إلا فى النادر ، وإلا لأمور منها مثل إعداد إقامة لابنته أو إحضار مرضعة لها . ولم يهتم بهيلين ، إنما شغف بابنته شغفاً عظيماً ، وحزن على وفاتها ، وهى فى سن الخامسة أشد الحزن .

ومن نهاية عام ١٦٣٣ إلى عام ١٦٣٥ استقر بامستردام واتخذ لنفسه فى تلك المدينة أكثر من منزل . وسافر أثناء تلك الإقامة إلى بلاد الدانمارك فى رحلة قصيرة . وفى نهاية عام ١٦٣٥ ، مكث باوترخت Utrecht بشمال هولندا . ورجع فى عام ١٦٣٦ إلى أمستردام حيث عمل على إنهاء كتبه العلمية ، والمقال عن المنهج . وابتدأ من أوائل عام ١٦٣٧ بمباشرة طبع تلك الكتب .

وقد عمل منذ عام ١٦٢٩ فى كتاب إنكسار الضوء Dioptrique ؛ ولعله انتهى من تحرير مسودة الكتاب فى عام ١٦٣٢ . ثم عرض للبحث فى نهاية عام١٦٣١ فى مسائل الهندسة الإغريقية ، فانتهى إلى اكتشاف الهندسة التحليلية فى أوائل عام ١٦٣٢ . وفى هذا العام الأخير ، شرع فى تأليف كتاب كامل فى « العالم » درس فيه ، بعد الامتداد والحركة ، ظواهر الضوء بوجه عام .

وكان يعنى من عام ١٦٣١ بالتشريح ، فابتدأ فى سنة ١٦٣٣ جزءاً ثانياً للكتاب السابق ، سماه « كتاب الإنسان » Traité de l'Homme . وكاد ينتهى فى عام ١٦٣٣ من الكتاب كله عندما سمع بخبر إدانة الكنيسة الكاثوليكية لجاليليو لتقريره دوران الأرض . وكان قد وصل إلى نفس النتيجة فى كتابه السابق . وما سمع بخبر تلك الإدانة إلا وأعلن لأصدقائه عزمه على الامتناع عن نشر «العالم» وذلك لسببين رئيسيين : أولهما حبه للدعة ورغبته فى تجنب الاعتراض والنقد . والثانى اعتباره القضية العلمية السابقة وكافة قضايا العلم نتائج فروض واستدلالات فرضية ليس إلا . — ثم عمل بعد ذلك على إتمام بحوثه العلمية الأخرى ونشرها : فعلاوة على « انكسار الضوء » درس الظواهر الجوية وأخذ يؤلف فى الآثار العلوية Météores كتاباً صدر فى عام ١٦٣٧ مع «الهندسة» Géométrie ومع « انكسار الضوء » Dioptrique وأصدر مع هذه المقالات العلمية الثلاثة مقدمة لها فى تاريخ فكره وفى منهجه وتلك المقدمة هى « المقال عن المنهج » .

وأخذ يتلقى الرسائل من علماء يعرفهم وآخرين لا يعرفهم بصدد ما احتوته مؤلفاته السابقة هذه من آراء علمية جديدة . وتلقى أيضاً عدة خطابات أخرى بصدد ما احتوته صفحات « المقال عن المنهج » من نظريات فلسفية .

(هـ) التأليف الفلسفى .

ويبدو أن ديكارت أرضى نفسه ومراسليه فى المسائل العلمية . وكانت الخطابات الفلسفية بمثابة مشجع له على المضى فى البحث والتفكير الفلسفى . — حتى اعتزم ما بين عام ١٦٣٨ و ١٦٣٩ التفرغ للفلسفة تفرغاً كاملاً . فنجده فى عام ١٦٣٨ معتكفاً ببلدة سانت پورت Santport بشمال هولندا حيث لم يلق إلا أشد المقربين إليه . وبقى فى تلك العزلة مدة سنتين تقريباً تخللتهما رحلات قصيرة إلى أمستردام أو اوترخت . وفى سبتمبر من عام ١٦٤٠ دعى على وجه الاستعجال لمرض ألم بابنته فرانسين فلم يحضر إلا لوفاتها . وكان عام ١٦٤٠ هذا من أقسى الأوقات عليه ، شاهد فيه وفاة ابنته بعد وفاة أبيه .

وانتهى فى عام ١٦٤١ إلى مؤلف فلسفى جامع عرضه عن طريق صديقه مرسين على بعض كبار الفلاسفة ورجال الدين فتلقى من بعضهم أسئلة واعتراضات عمل على نشرها فى نهاية مؤلفه هذا مع إجاباته على تلك الاعتراضات . فخرج الكتاب فى عام ١٦٤٢ تحت عنوان « تأملات فى الفلسفة الأولى يُبرْهَن فيها على وجود الله والتمييز القائم بين النفس والجسم ، مضافًا إليه تلك الاعتراضات والإجابات» .

وفى نفس الوقت الذى انتهى فيه من كتاب « التأملات » فكر فى تأليف كتاب جديد يعرض فيه فلسفته للمدارس آملاً أن تشيع تلك الفلسفة لا بين العلماء وحدهم بل بين الطلاب كذلك ، وخاصةً بين طلاب مدارس اليسوعيين ، أساتذته القدماء . ولكنه لم يلق منهم فى ذلك أى تشجيع . وطلع الكتاب فى عام ١٦٤٤ تحت عنوان « مبادئ الفلسفة » .

وأمر غريب أن يسعى ديكارت إلى الدعة والطمأنينة فتكون كتبه واتصالاته الفلسفية بمعاصريه وخاصة باليسوعيين والهولنديين فرصة نقاش وشجار لانهاية لهما . فبعد نقاش دام سنوات ولم ينته إلى نتيجة بينه وبين اليسوعيين ، هاجمه علماء اللاهوت بهولندا ورجال الجامعات وخاصة جامعة أوترخت وعرّضوا بآرائه وبتلاميذه من العلماء والفلاسفة ، ثم هاجموه فى حياته الشخصية . وبقى ديكارت سنوات يفند ادعاءات خصومه ، ويرد على نقدهم ، ويدافع عن نفسه ، بعد هجومهم عليه من جديد ، ويدافع فى ذات الوقت عن حرية الفكر والنشر والتعليم . لكن خصومه لم يهدأوا لحظة حتى اضطر ديكارت فى نهاية الأمر إلى الالتجاء إلى صديقه هويجنز Huygens وكان من رجال البلاط الملكى الهولندى ثم إلى سفير فرنسا نفسه لدى ذلك البلاط .

وضاق بحياته فى هولندا لولا صداقة الأميرة اليصابات له وخطاباتها فى شتى الموضوعات وخاصة فى الموضوعات الأخلاقية ، وابتدأ ديكارت حوالى عام ١٦٤٥ فى معالجة المسائل الإنسانية بوجه عام ، والأخلاقية بوجه خاص . فكتب فيها

الخطابات تلو الخطابات إلى الأميرة اليصابات يرد على أسئلتها ويوجه تفكيرها وحياتها . وخرج فى عام ١٦٤٩ ، أى سنة قبل وفاته ، بكتاب فى « انفعالات النفس » .

وسافر ديكارت إلى بلاده مرات ثلاث قبل وفاته : مرة أولى فى عام ١٦٤٤ ، راجع أثناءها ترجمة لاتينية للمقال عن المنهج . ثم عاد مرة ثانية فى عام ١٦٤٧ ، فالتقى بپسكال وتناقش معه فى موضوع الخلاء . — ثم رجع إلى باريس مرة أخيرة فى عام ١٦٤٨ ، بدعوة خاصة من أصدقائه ومن الحكومة الفرنسية ، فوجد البلاد فى ثورة أهلية ، وأصدقاءه منشغلين عنه . فعاد إلى هولندا خائب الأمل .

وقد تعرف أثناء زياراته إلى فرنسا بشانو Chanut ، الذى عين فيما بعد سفيراً لدى الملكة كريستينا ملكة السويد ، والذى أصبح واسطة التعارف بين الملكة وديكارت . وراسل ديكارت الملكة بعد الأميرة اليصابات فى المسائل الأخلاقية . وتردد فى قبول الدعوة لزيارة السويد ، والإقامة بها مستشاراً للملكة واستاذاً لها فى العلم والفلسفة . تردد طويلاً ، ولم يسعه الرفض فى نهاية الأمر .

ووصل فى خريف ١٦٤٩ إلى السويد ، حيث وجد البرد شديداً . وكان عليه أن يخرج فى الفجر لإلقاء دروسه على الملكة ، وهو لم يعتد شيئاً من ذلك طول حياته كلها . فأصيب فى يناير من عام ١٦٥٠ بنزلة رئوية شديدة ، اضطرته إلى الفراش أياماً ، لم يفق أثناءها من مرضه إلا ليعرف قرب نهايته . وقضى ديكارت هادئاً ، واثقاً بالله . وكانت وفاته فى اليوم الحادى عشر من شهر فبراير سنة ١٦٥٠ .

شخصية ديكارت :

قد تؤدى رواية الأحداث فى حياة ديكارت إلى عدم التثبت من شخصية الرجل وطباعه . لذلك يجمل بنا أن نكوّن فكرة جامعة عن تلك الشخصية خلال أفعاله وبحوثه ، وذلك قبل عرض منظم لتأليفه .

ومن العسير الاعتماد فى تكوين هذه الفكرة على طفولة ديكارت أو سنى دراسته لعدم تأكدنا من أحداث ذلك الزمن كله ، ثم لعدم وضوح معالم شخصيته أثناءه ، وعدم نضوجها النضوج الكافى .

وربما كانت إقامة ديكارت الأولى بهولندا بين عامى ١٦١٨ و ١٦١٩ مناسبة أولى لظهور تلك الشخصية فى شىء من الوضوح . وقد ذكرنا كلماته فى سنة ١٦١٩ لصديقه اسحق بيكمان : إن هذا الأخير هو الذى « أيقظه من خموله وأعاد إلى نفسه علماً كاد ينمحى »[١] .

كان العلم الديكارتى أشبه بسلاح ذى حدين : ديكارت حذر من علم ملقن ، ولكنه راغب فى نفس الوقت فى التعلم ، متخوف من الفشل ، عازم على المضى إلى الأمام . ولذلك كانت أحلامه فى نوفمبر سنة ١٦١٩ مناسبة لانتقاله من مرحلة الحيرة إلى مرحلة الثقة ،وعلامة هذه الثقة ، فى البداية على على الأقل ، حماسة بالغة . ولكنها ليست حماسة مذهول أمام أمر عجيب بل بل حماسة رجل واثق فى قدرته على الفهم والعمل .

ولعل هذه القدرة ، وهى صادرة عن قوة أصيلة فى النفس ، طابعُ الرجل فى حياته ، وأفعاله كلها ، وفى استجاباته كلها للأحداث ، وفى تأليفه وتفكيره الفلسفى أيضاً .

ومظاهر القوة عند ديكارت غير صريحة ، غير مباشرة فى بعض الأحيان ، مثل لباقته وسياسته مع من يعترف بقدرته ويريد مع ذلك الإفادة منه كمعاملته لفيرماه Fermat [٢] العلامة الرياضى الفرنسى ؛ وكمعاملته لليسوعيين بنوع خاص. فهو يمتدح هؤلاء إذا اقتربوا منه فى رفق ، ولا يهاجمهم إذا هاجموه أو خالفوه ،

---

(١) أ. – ت . المجلد العاشر ص ٤٦

(٢) قارن بين خطابات ديكارت عنه فى عامى ١٦٣٧ ، ١٦٣٨ (ل . ٧٥٩ – ٧٧٥) وخطابيه إلى فيرماه نفسه فى ١٦٣٨/٧/٢٧ وفى ١٦٣٨/١٠/١١ (ل ٧٩٣ ، ٨١٦) – راجع فى فيرماه كتابنا عن پسكال ص ٣٢ – ص ٣٥ .

ولا يتجاهلهم بأى حال من الأحوال . إنما يدافع عن نفسه ويدعو خصومه إلى الالتقاء به والمناظرة معه إن كان فى ذلك فرصة للدعاية لعلمه وفلسفته[١] .

ومن المظاهر غير المباشرة لتلك القوة إرادة العزلة : اعتزل ديكارت فرنسا تجنبًّا للزيارات والاجتماعات وحبًّا فى الدعة والطمأنينة . ثم غالى بعد ذلك فى إخفاء مقره إلى حد أن مراسليه كانوا يبعثون خطاباتهم لشخص يذهب ديكارت لتسلمها عنده . وكان ينتقل فى عزلته الهولندية من منزل إلى منزل ومن مدينة إلى مدينة حتى لا يطغى على حياته معارفه أو جيرانه . — وقد رجا صديقه مرسين ألا يرسل إليه من خطابات الذم والنقد إلا تلك التى يرضى صاحبها نشرها مع رده عليها .

كان حذراً منذ عهد بعيد. ولباقته وعزلته مظهرا ذلك الحذر، ولكنهما أيضاً مظهرا قوته وأسلوبه فى الاتصال بالناس والإفادة منهم دون التضحية بوقته وطمأنينته .

ولعل حب العزلة من المظاهر الدائمة فى شخصيته وحياته كلها . فقد تعلم فى المدرسة مع الرفاق، إنما كان ينام منفرداً فى غرفته ويبقى فيها طويلا مكبًّا على تأملاته . — ثم إنه ليضمن لنفسه ومشروعاته النجاح اختلى إلى غرفة وسط الغابات لا تضىء حياته فيها إلا مدفأته وأحلامه . وقد فضل منذ الصغر التعلم من نفسه على التعلم من غيره[٢]. والتفكير بوجه عام على المطالعة والحديث والتأليف . واعترف مرة فى حياته بأن الكلام والكتابة سخرة كم كان يود التحرر منهما . وافترض أن القرود أحكم الكائنات لو صح اعتقاد المتوحشين فيهم أنهم يمسكون عن الكلام حتى لا يرغموا على العمل طول الوقت[٣].

---

(١) راجع فى هذا الموضوع مجموعة رسائل ديكارت (طبعة أ . — م المجلد الرابع والخامس الرسائل ٢٤٨ ، ٢٤٩ ، ٢٥١ ، ٢٦١ ، ٢٦٢ ، ٣٢٠ ، ٣٣٠ وأخرى كثيرة) .

(٢) راجع القاعدة العاشرة فى كتابه « القواعد لتوجيه العقل » ل . ٣٧ وقد ترجمناها فى نهاية كتابنا ص١٧٥ .

(٣) راجع خطابه إلى شانو فى ١٦٤٦/١١/١ ل . ١٠٠٦ — ١٠٠٧

وإذا كانت عزلة ديكارت مظهراً لقوته فهمنا أن تجاوز قوته حدود الحيطة والحذر فى بعض الأحيان . فالقوة الأصل، والحذر والعزلة واللباقة والسياسة مظاهر فرعية . ولذلك كانت مظاهر القوة الديكارتية صريحة فى الغالب . وتتخذ القوة مظاهر الهجوم والعدوان . وقد رأيناه واقفاً شاهراً سيفه على بحارة المركب يريدون سلبه وقتله . ونراه فى مناسبات عدة مستعداً للفتك بخصومه فى العلم عند ما يحاولون انتقاصه من ورائه أو التنديد علناً بشخصه أو آرائه[١] . وقد كتب ديكارت إلى مرسين بعض خطابات بالغة فى الشدة والعنف يعبر فيها عن رأيه فى روبرڤال Roberval الرياضى الفرنسى المعاصر ويرجو فيها مرسين ألا يذكر له اسمه[٢] .

ولكن إذا كان للقوة السبق فى حياته فهى لم تقف عند مظاهر العدوان كما لم تقف عند مظاهر العزلة . ورسائله العديدة التى تملأ مجلدات أعظم دليل على إرادته التعويض عن عادات العزلة وما ينجم عنها من مضار . وقيل أنه كان يكتب الرسائل دون توقف أثناء ساعات الليل المتعاقبة لا يوقف قلمه إلا النوم وحده .

وفى خطاباته وخاصة فى تلك التى كتبها فى السنوات الخمس الأخيرة من حياته أكثر من علامة على هذا التعويض . بل فيها ما يفوق التعويض، فيها معانى الصداقة الحقيقية التى كان يكنها لبعض الناس أمثال شانو والأميرة اليصابات .

وقد خيل لبعض مراسليه أنه خالى من الانفعالات والعواطف . فكان رد ديكارت أن الانفعال فى نظره نافع ضرورى ، وأنه إذا كانت بعض الانفعالات مصدر اضطراب كان بعضها مصدر قوة . ولا شك فى أن الغضب مضر بالنفس وفى أنه

---

(١) راجع خطاب إلى هويجنز فى ٣/١/١٦٤٠ رقم ٢٢٨ من المجموعة الكاملة لرسائله (أ . ـ م المجلد الرابع ٢ ـ ٥)

(٢) خطاب إلى مرسين فى ١٢/١٠/١٦٤٦ (ل . ١٠٠١ ـ ١٠٠٣) .

لابد من الاستعاضة عنه بالاستنكار [١] . كذلك كانت الكراهية فى آثارها السيئة، وكذلك كان الحب لأنه يبعث المحبَّ على بغض جميع الأشياء ما عدا المحبوب ، ولأنه يطغى على حياة المحب وعالمه ويفقده القدرة على الحكم والتمييز بين الأشياء[٢].

إلا أن هناك عدا هذا الحب الانفعالى المندفع عاطفة حب نحو الغير لا أنانية فيها . هذا هو الحب الذى شعر به ديكارت نحو أصدقاء مثل شانو ونحو الأميرة اليصابات بنوع خاص . وقد كان اتصاله بالأميرة فاتحة مرحلة جديدة فى حياته ومصدر إلهام فلسفى جديد . فكانت الأميرة تقص عليه فى صدق وإخلاص أحزانها وآلامها وتأثير الأشياء فيها . فوجد فى دراسته لتلك الأحوال وفى البحث عن وسائل التحرر منها مبعثاً للطمأنينة فى نفسه وفى نفوس الغير .

ويتم تحرر النفس من الانفعال السيئ بواسطة قوة النفس الأصيلة . ولتلك القوة لغتها وعلاماتها العاطفية الانفعالية ؛ والفرح والأمل والاستبشار من أهمها[٣] . وهذه بمثابة أصوات تسمعها النفس فتقبل على توقع الأحداث ومجابهتها على النحو المناسب .

وقد شبه نفسه بسقراط واعترف بأنه أنصت مرات ألى تلك الأصوات فى نفسه وبأنه لاحظ إخفاقه فى بعض المناسبات لإهماله العمل حسب إلهامها[٤] وكان يوجس شرًّا من مشروع سفره الأخير إلى بلاد السويد حيث مات[٥]. إلا أنه كان حكيماً بأعمق معانى الحكمة . فصوت واحد لم يكفه . وفى النفس

---

(١) خطاب إلى شانو فى ١٦٤٦/١١/١ ل . ١٠٠٩ .

(٢) خطاب إلى شانو فى ١٦٤٧/٢/١ ل . ١٠٢٧ — ١٠٢٨ .

(٣) خطاب إلى اليصابات فى نوفمبر سنة ١٦٤٦ ل . ١٠٠٣ — ١٠٠٤ .

(٤) خطاب إلى اليصابات فى نوفمبر سنة ١٦٤٦ ل . ١٠٠٣ — ١٠٠٤ .

(٥) خطاب إلى شانو فى ١٦٤٩/٣/٣١ ل . ١٠٧٣ — ١٠٧٥ ؛ وخطاب إلى براسيه فى ١٦٤٩/٤/٢٣ ل . ١٠٧٧ .

علامات عديدة متباينة على واجباتها . وينبغى تغليب بعض تلك العلامات على البعض الآخر . وفى حالة رحلته إلى السويد التى أودت بحياته والتى أوجس منها شرًّا ما، كان يرجو أيضاً نفعاً عظيماً قد يصيبه من تلك الزيارة، نفعاً يناله الغير بتعلم المنهج والفلسفة الحقيقية على يديه، ونفعاً يناله هو شخصيًّا مما ينجم عن تلك الزيارة من رعاية وترويج لمذهبه ومنهجه . وما دام فى الأمر آمال ومنافع وخيرات لنفسه ولغيره وهى كلها علامات للنفس القوية فلا محل للتردد فى القيام بتلك الرحلة . ومهما كان من توقعه الشر من هذه الرحلة أو تلك فهو لا يخاف شيئاً . وهو لا يخشى الموت بنوع خاص بل يحب الحياة وما تجىء به من خيرات[1] .

وحب الحياة والخوف أمران لا يجتمعان .

مراحل التأليف :

إن نظرنا إلى تاريخ التأليف الديكارتى لاحظنا أولا أنه ينقسم انقساماً طبيعيًّا إلى مراحل ثلاث أو أربع متباينة زمناً وموضوعاً ؛ ولاحظنا ثانياً أن التمييز الزمنى بين المراحل المذكورة مرتبط بأحداث هامة فى حياة ديكارت الفكرية وغير الفكرية ؛ ثم لاحظنا أمراً ثالثاً غاية فى الأهمية وهو اختلاف فى الأسلوب واختلاف فى لغة التعبير ، لاتينية كانت أو فرنسية .

لنلخص تأليف ديكارت فى ضوء هذه الملاحظات الثلاث :

هناك مرحلة افتتاحية أو تمهيدية لا يلزم اعتبارها مرحلة تأليف بالمعنى الضيق لأن ديكارت لم يقصد أثناءها نشر أى كتاب . وهى تلك التى عاصرت أحلامه ومشروعاته الأولى فى عامى ١٦١٨ و ١٦١٩ عندما التقى ببيكمان فى هولندا وعندما اختلى إلى نفسه فى ألمانيا . وكانت مظاهر التأليف فيها بعض مخطوطات فى المسائل العلمية التى اعتزم البحث فيها ومخطوطات أخرى تعبر

---

(١) خطاب إلى مرسين فى ١٦٣٩/١/٩ ل . ٨١٨

عن أحواله النفسيه وآماله الفلسفية . وأهم مخطوطات هذه المرحلة « ملخص الموسيقى » Musicae Compendium ثم « الأولمبيات » Olympica ثم « الخواطر الفردية » Cogitationes Privatae كما سماها ليبنتز . وجميع هذه المخطوطات باللاتينية ويغلب على أسلوبها طابعا الحماسة والغموض ، وذلك فيما عدا المخطوطات العلمية البحتة[١] .

وتلت تلك المرحلة الافتتاحية مراحل رئيسية ثلاث :

الأولى — وهى مرحلة المنهج والعلوم : لم تبدأ فعلا إلا بعد اجتماعات ديكارت بالكردينال در بيرول فى عام ١٦٢٧ وعزمه من ذلك الوقت على التقدم فى مشروعاته العلمية من ناحية ، وإنشاء فلسفة تتفق والدين وتؤسس العلم من ناحية أخرى . وأول مؤلفات هذه المرحلة كتاب «القواعد لتوجيه العقل» Regulae ad direc-tionem Ingenii [٢] باللاتينية ، وهو كتاب ديكارت الرئيسى فى المنهج ألفه فى عام ١٦٢٨ ولم ينته منه ولم ينشره . وآخر مؤلفات هذه الفترة « المقال عن المنهج » Discours de la Méthode [٣] مع الكتب العلمية الثلاثة فى « انكسار الضوء » Dioptrique و«الآثار العلوية » Météores و « الهندسة » Géométrie [٤] كُتبت بالفرنسية ونشرت كلها فى عام ١٦٣٧ وجميعها فى المنهج والعلوم ما عدا صفحات فلسفية بحتة فى « المقال عن المنهج ». ويمتاز أسلوبها لا سيما أسلوب « المقال » بالوضوح ، بوضوح المعانى وبوضوح النظام بوجه خاص . أسلوب هو مرآة لقدرة الرجل على تأليف آرائه فيما بينها

---

(١) انظر فى هذه المخطوطات المختلفة المؤلفات الكاملة لديكارت طبعة أدام وتانرى (أ . — ت) المجلد العاشر : ٧٩ — ١٤١ ؛ ١٨٠ — ١٨٨ ؛ ٢١٣ — ٢٤٨ .

(٢) انظر المؤلفات الكاملة أ. — ت المجلد العاشر ٣٥٩ — ٣٦٨ .

(٣) انظر المؤلفات الكاملة أ — ت المجلد السادس ١ — ٧٨ .

(٤) انظر المؤلفات الكاملة لديكارت (أ. — ت) المجلد السادس ٧٩ — ٣٨٤ .

وتنظيمها والتعبير عنها فى جمل تطول فى بعض الأحيان ولكنها تترابط على نحو ترابط الأفكار ذاتها .

وتخللت مرحلة التأليف هذه التى بدأت فى عام ١٦٢٨ وانتهت فى عام ١٦٣٧ بحوث ديكارت العلمية الرئيسية الممهدة للكتب العلمية المذكورة . ولكن أهم عمل قام به فى تلك الفترة تأليفه كتاب « العالم » بالفرنسية فى جزئيه الرئيسيين وهما « الضوء » و «الإنسان »[١] . وكاد ينتهى فى هذه الفترة من الجزء الأول[٢]. ولكنه توقف عن نشره لارتباطه بمسألة دوران الأرض التى أدانت الكنيسة آراء جاليليو فيها . أما أسلوب كتاب « العالم » فهو المثال الأعلى فى تأليفه العلمى كله .

وقد كتب ديكارت فى هذه المرحلة عدة خطابات فى العلم وفى التجارب العلمية التى قام بها . ثم خطابات فلسفية ثلاثة غاية فى الأهمية فى مسألة أساس الحقائق العلمية وخلق الله لها[٣] .

والمرحلة الثانية التى تلت مباشرة نشر « المقال عن المنهج » هى مرحلة التأليف الفلسفى البحت . تفرغ أثناءها ديكارت لمعالجة للموضوعات الفلسفية المختلفة وذلك أولا فى محاولته الرد على أسئلة قراء «المقال عن المنهج» وخاصة قراء الصفحات الفلسفية فى المقال . وتقدم ديكارت فى بحثه كلما تقدم به الزمن وكلما اشتدت وطأة الأحداث على نفسه ، بعد مهاجمة الخصوم لنظرياته ، وبعد وفاة أعز الناس لديه، بنته أولا ثم أبيه بعد ذلك بمدة قصيرة . وكان ديكارت من نهاية عام ١٦٣٨ قد اعتزل فى مكان ما بشمال هولندا وبقى فى تلك العزلة مالا يقل عن سنتين . عالج أثناءها مسائل اليقين ، والوجود فى طبيعته وأصله ومصيره .

---

(١) انظر المؤلفات الكاملة لديكارت (أ. – ت) المجلد الحادى عشر ١ – ٢٠٩ .

(٢) ثم رجع إلى الجزء الخاص بالإنسان فيما بعد ولكنه لم ينشره أثناء حياته .

(٣) وأرسلها إلى صديقه مرسين فى ١٥ أبريل وفى ٦ مايو وفى ٢٧ مايو سنة ١٦٣٠ . وقد نشرت فى المجلد الأول من مجموعة رسائل ديكارت ١٢٩ – ١٤٣ .

فأصدر فى عام ١٦٤١ ثم فى عام١٦٤٢ كتاب « التأملات فى الفلسفة الأولى »[١] باللغة اللاتينية مع اعتراضات بعض كبار العلماء عليها وردود ديكارت على تلك الاعتراضات . وإن كان يغلب على هذه الردود الأسلوب الفلسفى الجاف امتاز أسلوب « التأملات » ذاتها بصفات شخصية بارزة ؛ ويكاد يلمس فيها القارئ حديث ديكارت إلى نفسه ومناقشته المتصلة لآرائه ولما تثيره تلك الآراء من اعتراضات .

ومن المحتمل جداً أن ديكارت ألف بين نهاية عام ١٦٤١ وأوائل ١٦٤٢ المحاورة الفلسفية التى ظهرت بعد وفاته تحت عنوان « البحث عن الحقيقة بواسطة النور الطبيعى »[٢] يعبر فيها عن بعض نظرياته فى « التأملات » تعبيراً مبسطاً مسهباً .

وامتازت المرحلة الثالثة والأخيرة من تأليف ديكارت وهى مرحلة الفلسفة الأخلاقية برسائل ديكارت بين عام ١٦٤٣ وعام ١٦٤٩ إلى الأميرة اليصابات فى مشكلة اتحاد النفس بالبدن وفى مشكلات الانفعال وضبط النفس ، ثم فى الخير الأسمى والسعادة . ونشر ديكارت فى عام ١٦٤٤ كتاب « مبادئ الفلسفة »[٣] باللغة اللاتينية فى أجزاء أربعة : الأول فى مبادئ المعرفة ، والثانى فى مبادئ الأشياء المادية ، والثالث فى العالم المنظور ، والرابع فى الأرض . عبر فيه

---

(١) ظهرت « التأملات » فى طبعتها الأولى بباريس فى عام ١٦٤١ تحت عنوان : « تأملات فى الفلسفة الأولى يبرهن فيها على وجود الله وخلود النفس » . وظهرت فى طبعتها الثانية بامستردام فى عام ١٦٤٢ تحت عنوان : « تأملات فى الفلسفة الأولى يبرهن فيها على وجود الله ، والتمييز بين النفس والبدن » . ونجد الأصول اللاتينية للتأملات والاعترافات والاجابات عليها فى المجلد السابع من مؤلفات ديكارت الكاملة (أ. – ت) ، والترجمة الفرنسية فى المجلد التاسع .

(٢) انظر هذا النص فى أ – ت المجلد العاشر ٤٨٩ – ٥٢٧ وترجمته فى طبعة لايلياد ٦٦٨ – ٦٩٠

(٣) ونشر الأصل اللاتينى للمبادىء فى المجلد الثامن (أ . – ت) والترجمة الفرنسية فى المجلد التاسع .

ديكارت عن آرائه الفلسفية والعلمية كما نجدها فى « التأملات » وفى كتاب « العالم »، وذلك فى صيغة فقرات متتالية موجزة . ولكنه أضاف معانى جديدة وفصل معانى سابقة تفصيلاً طريفاً، محاولاً صياغة الكل فى أسلوب يناسب التعليم فى مدارس وجامعات ذلك الوقت . وفى هذا الكتاب عمل ديكارت على بيان موقفه من الحرية الإنسانية[١] بكيفية أكثر صراحة ووضوحاً مما عمل فى « التأملات » ودرس طبيعة الجوهر وما يتبع الجوهر من صفات وخصائص ومن تمييزات بين الجوهر وصفاته وخصائصه وبين هذه فيما بينها ؛ وأظهر فى وضوح تام معنى الجوهر المادى وتمايزه عن صفاته وخصائصه[٢] . وعنى ديكارت أخيراً فى الجزء الرابع من « المبادئ » بالكشف عن منزلة التجربة والمنهج التجريبى من العلوم الطبيعية وعن طبيعة اليقين الخاص بهذا المنهج وبتلك العلوم فى نواحيها التجريبية الواقعية[٣] .

ونشر ديكارت فى عام ١٦٤٩ أى سنة واحدة قبل وفاته كتاب « انفعالات النفس » باللغة الفرنسية وكان قد شرع فى تأليفه منذ عام ١٦٤٦ لغاية أهدائه إلى الأميرة اليصابات التى شرع يراسلها فى الموضوعات الأخلاقيه منذ عام١٦٤٣ واستمر فى الكتابة لها حتى عام ١٦٤٩ . وفى تلك السنوات أيضا كتب ديكارت فى الموضوعات الأخلاقية إلى صديقة شانو الذى أصبح فيما بعد سفير فرنسا لدى الملكة كريستينا ملكة السويد ؛ ثم كتب إلى تلك الملكة نفسها[٤] .

وجميع هذه الخطابات باللغة الفرنسية . وأسلوب هذه الخطابات رائع حقاً، صورة لتفكير ديكارت وشخصيته وعلاقاته مع الغير . وسواء لما احتوته تلك الخطابات من نفحات إلهام أو نكات طريفة فهى أصدق تعبير عن القوة التى رأينا فيها طابع ديكارت الرئيسى .

---

(١) « مبادىء الفلسفة » الجزء الأول : الفقرات من ٣٧ – ٤١ .

(٢) « مبادىء الفلسفة » الجزء الأول : فقرات ٥٠ – ٦٥ .

(٣) « مبادىء الفلسفه » الجزء الرابع : فقرات ٢٠٣ – ٢٠٦ .

(٤) وقد جمع چاك شفالييه هذه الخطابات كلها فى كتاب واحد تحت عنوان « خطابات فى الأخلاق Lettres sur la Morale ونشره فى باريس عام ١٩٣٧ .